

البيروني وأسس الأنثروبولوجيا الثقافية

د. أحمد الربابعة

الجامعة الاردنية

تمهيد :

يغفل مؤرخو الأنثروبولوجيا في كثير من الاحيان - عن قصد او عن غير قصد - دور المفكرين العرب في التمهيد للدراسات الأنثروبولوجية الحديثة . اذ غالبا ما يشيرون الى كتابات هيرودتس عن حياة الشعوب القديمة وعاداتها وتقاليدها في القرن الخامس ق.م ، وكتابات المبشرين والرحالة الغربيين في عصر الكشوف الجغرافية في القرن الخامس عشر للميلاد على انها المقدمات التمهيدية لنشأة الاهتمام بهذا النمط من الدراسات^(١)، متجاهلين بذلك فترة العصور الوسطى التي شهدت فيها الدراسات الأنثروبولوجية تقدما كبيرا على ايدي نخبة من جهابذة المفكرين والرحالة العرب أمثال ابن فضلان والبيروني وابن خرداذبة وابن بطوطة وابن جبير والمسعودي وابن خلدون وغيرهم من المؤرخين والرحالة العرب الذين ألفوا مصنفات عديدة تشتمل على معلومات اتنوغرافية (وصفية) وفيرة عن أحوال الشعوب التي زاروها وكتبوا عنها وعن عاداتها وتقاليدها ونظمها الاجتماعية المختلفة . وما زالت مؤلفاتهم حية حتى يومنا هذا تشهد على عظمة انجازاتهم العلمية في ميدان الدراسات الأنثروبولوجية وفي غيرها من ميادين المعرفة الاخرى بصورة تؤكد ما قاله لوثر^(٢) « بأن العرب كانوا أكثر ممالك الدنيا حضارة وعمرانا ورقيا طيلة القرون الوسطى »^(٣).

واذا كانت الاكتشافات الجغرافية في القرن الخامس عشر للميلاد هي التي مهدت لنشأة الاهتمام بالدراسات الأنثروبولوجية ، فان الرحالة العرب هي الذين مهدوا الطريق للرحالة الغربيين وللاكتشافات الجغرافية الحديثة بما قدموه من معلومات

* البيروني : هو أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني ، ولد صباح الخميس الثالث من ذي الحجة ، عام ٦٢٢ هـ في نواحي بلدة «كات» المعروفة في هذه الايام بخيوا . أما بيرون فهي كلمة فارسية للسواحلي والاطراف ، أو كان مسقط رأسه وتوفي عام ٤٤٠ هـ (١٠٤٨ م) . انظر وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية « تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة » ، مجلس دائرة المعارف العثمانية ، حيدر آباد ، الدكن الهند ، ١٣٧٧ هـ وانظر كذلك بجايند البتارسي ، غرة الزيجات، ترجمة أبو الريحان ، محمد بن أحمد البيروني ، المجمع العلمي السندي ، جامعة السند ، حيدر آباد ، السند ، باكستان ١٩٧٣ ، ص (ح) .

وفيرة عن أحوال البلاد الجغرافية والاقتصادية والعمرانية والإدارية وغيرها (٢). وقد كانوا يهدفون من وراء الرحلة وجمع المعلومات من البلاد الإسلامية والبلاد الأخرى المتاخمة لها إلى تمتين صلة هذه البلاد بعاصمة الخلافة الإسلامية في بغداد وإلى حماية سكانها من الاعتداءات الخارجية ، وذلك بخلاف الساسة الأوروبيين الذين كانوا يستغلون المعلومات الإثنوغرافية (الوصفية) التي كان يجمعها الرحالة وحكام المستعمرات والمبشرون لتقوية قبضتهم الاستعمارية على هذه البلاد ولتسهيل إدارتها واستنزاف خيراتها واستغلال مواردها البشرية بأجور زهيدة أو بدون أجور .

ومن ناحية أخرى فإن اتصال العرب بحضارات العالم القديم مثل الهند والصين لم يكن كله بفعل الفتح الإسلامي . فقد كان للعرب اتصالات تجارية مع هذه البلاد قبل الفتوحات الإسلامية (٤) . وكان التجار يدونون ملاحظاتهم ومشاهداتهم عن عادات الشعوب في أثناء أسفارهم وتنقلاتهم ، وكانت تعرض على شكل قصص وروايات تحكي قصة حياة الشعوب التي زاروها (٥) ، ولم يعرفوا أن هذه المشاهدات والملاحظات سوف تصبح يوما موضوعا لعلم مستقل قائم بذاته وهو علم الانثروبولوجيا . وهذا كله يشير إلى أن الدراسات العربية الإثنوغرافية لم ترتبط منذ البداية بأية أهداف استعمارية .

وعلى الرغم من أن جهود العرب في هذا المجال قد أُسِدِلَ عليها الستار لمدة طويلة من الزمن فإن الأوروبيين أصبحوا يدركون كما يقول يهودا مقدار دينهم لما قدمه التمدن العربي للأوروبيين (٦) وأصبحوا يسلمون كذلك كما يقول كراتشكوفسكي بأن الحضارة العربية تشغل مكانة مرموقة في تاريخ البشرية (٧) . ول سوء الحظ فإن نسبة كبيرة من المثقفين العرب وطلبة الجامعات والمعاهد العلمية في الوطن العربي ما زالت تجهل إلى حد ما الإسهامات الحضارية والإنجازات العلمية التي قدمها العرب لبناء صرح الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة . وربما يعود ذلك في جزء كبير منه إلى ندرة الكتابات في هذا الموضوع ، وإلى خلو المناهج تقريبا في أقسام علم الاجتماع والانثروبولوجيا في الجامعات العربية من مادة دراسية توضح إسهام العرب في هذا الموضوع الحيوي الهام .

واني لأقف بحزم مع العلماء والمفكرين العرب الذين ينادون بضرورة إنشاء علم انثروبولوجيا عربي ، وذلك بأن نمد أيدينا إلى المصنفات الضخمة التي خلفها رواد الفكر العربي الأوائل والفقهاء والمفسرون والرحالة المتجولون ونحلل مادتها ومحتوياتها الإثنوغرافية الخصبة بأساليب عصرية تنسجم مع الطريقة العلمية المتبعة في الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة . فبذلك نمهد لماضينا الثقافي كما يقول الكيالي أن يكون ماثلا أمامنا بشكله المقبول المحبب الذي لا يمكن إنكاره مهما حاول البعض أن يقلل من قيمته (٨) ...

وقد كانت أول محاولة لكاتب هذه الاسطر في هذا المجال في عام ١٩٨٣ عندما نشر بحثا بعنوان « اسهامات الرحالة العرب في الدراسات الانثروبولوجية المبكرة » (٩) حاول أن يستعرض فيه الخطوط العريضة للجهود العلمية التي بذلها الرحالة العرب في مجال التمهيد للدراسات الانثروبولوجية الحديثة .

وقد رأى الباحث في هذه المحاولة الثانية أن يقف جهده العلمي المتواضع على تحليل جزء يسير من المادة الاثنوغرافية الغزيرة التي تضمنها كتاب البيروني « تحقيق مل للهند من مقولة مقبولة في العقل او مرذولة » ذلك لان هذا الكتاب يشتمل على كثير من ركائز المنهج الانثروبولوجي وعلى كثير من الموضوعات الاجتماعية التي ما زالت تشكل محور اهتمام الانثروبولوجيا المعاصرة . وبالإضافة الى ذلك ، فان هذا الكتاب يتناول مجتمعا عجيبا يتميز بتعدد دياناته ولغاته وسلالاته وعاداته الاجتماعية الى درجة أنه يمثل كما يقول لوبون « زبدة جميع العوالم وخلاصة ناطقة بجميع ادوار التاريخ وصورة صادقة للادوار المترجحة بين الهمجية والحضارة الحديثة » (١٠) ولذلك فان التعرف الى النظم والعادات الاجتماعية التي أبرزها البيروني في هذا الكتاب ربما يمدنا بفكرة عامة عن مجمل الحضارة في العالم في ذلك الوقت . ولعل هذه الفكرة الاخيرة هي التي كانت تقف وراء عبارة « طاغور » شاعر الهند العظيم ، انه لا يجب أن يعد نفسه مثقفا من لم يمض في الهند ثلاثة شهور على الاقل ، فمن لم يزر الهند اطلاقا يجب أن يكون أبعد ما يكون عن الثقافة (١١) .

وربما لا يكون هنالك دليل أبلغ على أهمية هذا الكتاب من وصف روزن له الذي وصفه منذ خمسين عاما بأنه أثر فريد في بابيه لا مثيل له في الادب القديم أو الوسيط سواء في الغرب أو في الشرق (١٢) :

لقد كان البيروني واسع الاطلاع والمعرفة وملما بجميع العلوم والمعارف التي كانت سائدة في عصره . فقد جاء في « غرة الزيجات » انه كان رحمه الله متبحرا في علوم كثيرة ومعارف جمة نحو الرياضيات والفلك والنجوم والجغرافية ومساحة الارض والمعادن وطبقات الارض والتاريخ والاخبار والسير والآثار القديمة والتمدن والفلسفة والدين ونظام الكون والطب والعرافة وجسد الانسان والبصريات والطبيعات واللغة والاساطير والحديث (١٣) . أما بالنسبة لابعاده في الهند والسند فقد كانت واسعة جدا ومتنوعة ، فلكي يقف البيروني على جميع ابعاد التفكير الهندي فقد حدد لنفسه مهمة صعبة وشاقة وهي دراسة جميع كتابات الهنود في كل ميدان من ميادين المعرفة ، فكان بحق أول من أوجد أسس الانطولوجيا . ويعتبر كذلك أول من أرسى أسس الانثروبولوجيا الثقافية لكونه درس معتقدات الهنود وأفكارهم الثقافية

وطريقة حياتهم دراسة موضوعية وبطريقة علمية مخططة (١٤) . وقد أراد البيروني بذلك أن تكون كتاباته عن الهند مرشدا وهاديا لكل باحث علمي ولكل من رام مخالطة الهنود والعيش معهم «يقول: سأعمل باذن الله كتابا في حكاية شرائعهم، والابانة عن عقائدهم ، والاشارة الى مواضعاتهم وأخبارهم وبعض المعارف في أرضهم وببلادهم يكون عدة لمن رام مداخلتهم ومخاطبتهم» (١٥) . ولا شك أن هذا يدل على أن البيروني كان واعيا بأهمية محتويات هذا الكتاب . ومدركا لفوائده الجمة الغزيرة . وقد وصف زاخو دراسات البيروني عن الهند بأنها تمثل عصر النهضة والانبعث العلمي ، وذكر كذلك ان معرفته المتخصصة بالهند التي يفنر اليها الآخرون جعلت من أعماله مثلة للفكر العالمي في تلك الفترة (أي فترة العصور الوسطى) (١٦) . وصفوة القول ، ان البيروني من كبار العلماء الذين ظهروا في القرن الرابع الهجري ، وقد أطلق على هذا القرن، اسم عصر البيروني لانه أكبر شخصية علمية عاشت في ذلك الوقت (١٧) .

ولأن المادة الاثنوغرافية التي اشتمل عليها كتاب البيروني (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) غزيرة واسعة جدا ومتنوعة ويصعب الالمام بها جميعا في هذا المقام ، فقد اختار الباحث منها موضوع الطبقات الاجتماعية وما يرتبط بها من بعض السنن والآداب الاجتماعية ، نظرا لأن الطبقة تشكل وحدة الحياة الاجتماعية الاساسية في الهند وتتحدد بموجبها معظم تصرفات الهنود وأنشطتهم الاجتماعية المختلفة . كذلك فقد اختار الباحث أن يتحدث عن المنهج الذي استخدمه البيروني في جمع المادة الاثنوغرافية لبيان اسهامه في هذا المجال العلمي الهام . ونرى انه من المناسب أن نبدأ بالحديث عن منهجه والوسائل والطرق التي استخدمها في جمع المعلومات الاثنوغرافية عن الحياة الاجتماعية في المجتمع الهندي القديم في فترة العصور الوسطى .

المنهج الانثروبولوجي عند البيروني :

يقوم المنهج في الدراسات الانثروبولوجية المعاصرة على الدراسة الحقلية الميدانية، واستخدام الملاحظة المباشرة وغير المباشرة والمشاركة الحسية أسلوبا لجمع المعلومات والبيانات من الميدان الاجتماعي ثم تحليل هذه المعلومات وتفسيرها في ضوء علاقتها بالبناء الاجتماعي القائم والاطار الحضاري العام للمجتمع موضوع الدراسة، على أساس أنه لا يمكن فهم أية ظاهرة اجتماعية أو أي نظام اجتماعي بمعزل عن شبكة العلاقات الاجتماعية القائمة في مجتمع الدراسة نظرا لما يقوم بين الظواهر الاجتماعية من ترابطات تكاملية من جهة ونظرا لما يقوم بينها جميعا وبين البناء الاجتماعي من تأثيرات متبادلة وتساندات وظيفية (١٨) .

ويعد مالىنوفسكي الانثروبولوجي الشهير أول من وضع أسس الدراسة الميدانية بعد أن قام بدراسته الحقلية لسكان جزر الترويرياند في مالينزيا ، على الرغم من أن مواطنه العلامة رادكليف براون هو أول من قام بدراسة حقلية لسكان جزر الاندمان (١٩) . وهذه الاسس هي :

اولا : اقامة الباحث الانثروبولوجي في مجتمع الدراسة وقطع كل اتصال له بالعالم الخارجي .

ثانيا : أن يكون لديه معرفة تامة بما توصلت اليه الدراسات العلمية الحديثة في مجال تخصصه وأن يكون لديه هدف علمي واضح للبحث .

ثالثا : أن يستخدم أدوات مناسبة لجمع بياناته الحقلية (٢٠) .

والمتمعن في الاسلوب الذي استخدمه البيروني في دراسته للمجتمع الهندي ، يلاحظ أنه يشتمل على الكثير من المبادئ والاسس التي طرحها مالىنوفسكي في هذا العصر . وبذلك يكون البيروني قد سبق مالىنوفسكي في التمهيد للمنهج الانثروبولوجي بمدة تقرب من تسعة قرون . والمبادئ التي طرحها البيروني هي : -

اولا : ملاحظة الظواهر الاجتماعية الماثلة للعيان ومشاهدتها في وقت وقوعها وفي

مكان حدوثها . يقول البيروني «انما صدق قول القائل ليس الخبر كالعيان، لان العيان هو ادراك عين الناظر عين المنظور اليه في زمان وجوده وفي مكان حصوله» (٢١) . ويتضمن هذا المبدأ الإقامة في مجتمع الدراسة بصورة مستمرة، ذلك لانه من غير المعقول ملاحظة الظواهر الاجتماعية ومشاهدتها في الوقت الذي يكون فيه الباحث مقيما في خارج المجتمع المدروس . وتشير المصادر التاريخية الى أن البيروني دخل الى بلاد الهند في عام ١٠١٧ ميلادية (٤٠٨ هـ) وانه تجول في المناطق الشمالية الغربية في الهند التي تدعى اليوم الباكستان قرابة احد عشر عاما ، من سنة ١٠١٩ - ١٠٢٩ م . وسافر في بلاد الهند زهاء ٤٠ عاما (٢٢) . وهذه المدة تزيد كثيرا جدا على المدة التي قضاها مالىنوفسكي عند سكان جزر الترويرياند في مالينزيا فيما بين عام ١٩١٤ - ١٩١٨ والتي تعتبر أطول مدة قضاها باحث أنثروبولوجي في المجتمع المدروس في العصر الحاضر (٢٣) . وتضمن هذا المبدأ كذلك ضرورة مشاهدة الحادثة الاجتماعية في اللحظة التي حدثت فيها ، وفي المكان الذي وقعت فيه ، ذلك لان أفراد المجتمع قد يكونون أشد تفاعلا مع الحادثة الاجتماعية وأكثر اهتماما بها لحظة وقوعها ، ولذلك فانهم قد يجيبون بصدق أكثر عن استفسارات الباحث وتساؤلاته بشأنها اذا اقتضى الامر ذلك . ثم

ان الحادثة الاجتماعية قد تكون من النوع الذي لا يتكرر في فترة زمنية قصيرة ولذلك ينبغي على الباحث مشاهدتها في زمن حدوثها حتى لا يضطر الى الاعتماد على المخبرين للحصول على معلومات بشأنها . وقد حذر البيروني كما سنبين بعد قليل من الاعتماد على الاخبار المنقولة نظرا لما تسببه من تشويه للحقائق الاجتماعية . وكذلك الامر فقد يكون للحادثة الاجتماعية صلة بالمكان الذي وقعت فيه فلا نستطيع ان نفهمها الا من خلال هذه الصلة . وهكذا يكون البيروني قد قرر اطارا تصوريا في رؤية الظواهر الاجتماعية ودراستها قوامه انه يقوم بين الظواهر الاجتماعية من جهة ثم بينها وبين المجال البيئي المحيط بها والمناخ الاجتماعي الملازم والزمن الذي تحدث فيه ترابطات تكاملية ، وما زال هذا الاطار الفكري هو الذي يحكم رؤية الانثروبولوجيين وعلماء الاجتماع المعاصرين للظواهر والنظم الاجتماعية والوظائف التي تقوم بها .

ويترتب على اقامة الباحث في المجتمع المدروس بصورة متواصلة مشاركته لهم في بعض فعاليتهم وأنشطتهم الاجتماعية ، وظهوره بينهم مرات عديدة ، فيألفون وجوده ويطمئنون اليه وهذا من شأنه ان يسهل مهمته الدراسية . وعلى الرغم من أن البيروني قضى في الهند قرابة أربعين عاما فانه أشار الى كثير من الصعوبات في التكيف معهم نظرا لنفورهم من كل وافد غريب وابتعادهم عن مخالطته والتفاعل معه . يقول البيروني : « فليس بمطلق لهم قبول من ليس منهم اذا رغب فيهم أو صبا اليهم دينهم » (٢٤) .

وتفضي اقامة الباحث في مجتمع الدراسة ومشاهدة الحادثة الاجتماعية تسجيل وقائمه وتفصيلاتها وكل ما يتعلق بها وعدم الاعتماد على الذاكرة والحفظ . يقول البيروني « لكنني كنت اعتمد فيما كنت احصل على الضبط بالكتابة دون الحفظ اعترازا بالسلامة وأمانا من الحوادث » (٢٥) .

ثانيا : عدم الاعتماد على الخبر وحده على الرغم من أهميته : يرى البيروني أن هنالك مشكلات عديدة تحف بالخبر ولا تجعل منه وسيلة ملائمة لجمع الحقائق الانثوغرافية وأهمها الكذب أو عدم الصدق في نقل الاخبار وروايتها (٢٦) . ويرى أنه لولا هذه المشكلة أي الكذب التي يسميها (آفة) لكان الاخبار عن الظاهرة الاجتماعية افضل من الملاحظة والمشاهدة ، ذلك لان الملاحظة تقتصر على مشاهدة الظاهرة ومعابنتها في وقت حدوثها ومكان حصولها ، أما الخبر فانه ييسر للباحث جمع معلومات عن الظاهرة ، ولو لم تقع أمام عينيه ، وذلك عن طريق الكتب والرواية والاستماع وغيرها من الوسائل . يقول البيروني : « ولولا لواحق آفات بالخبر لكانت فضيلته تبين على العيان والنظر لقصورهما على الوجود الذي لا يتعدى آفات الزمان ، وتناول الخبر اياها وما قبلها من ماضي الأزمنة وبعدها من مقبلها حتى يعم الخبر لذلك الوجود والمعدوم معا » (٢٧) .

ويحدد البيروني دواعي الكذب في :

أ - التعصب للذات أو للسلالة التي ينتمي إليها المخبر فيرفع قدر نفسه ومن قدر سلالته ويحط من قدر السلالات الأخرى. ومبعث ذلك هو الشهوة والغضب، يقول البيروني : « ومن مخبر عن أمر كذب يقصد فيه نفسه فيعظم به جنسه لأنها تحته أو يقصدها فيزري بخلاف جنسه لفوزه فيه بإرادته » (٢٨) .

ب - تحيز المخبر لطبقة اجتماعية معينة بسبب ما يحصل عليه من فوائد ومكتسبات وذم طبقة اجتماعية أخرى لعدم حصوله على مكتسبات منها . يقول البيروني : « ومن مخبر عن كذب في طبقة يحبهم لشكر أو يبغضهم لنكر ، والداعي إلى ذلك هو المحبة والغلبة » (٢٩) .

ج - التزلف والمحابة طمعا في خير يصيبه أو تجنباً لشر قد يقع له : يقول البيروني : « ومن مخبر عنه متقرباً إلى خير بدناءة الطبع أو متقياً لشر من فشل وفرع » (٣٠) .

د - أن يكون المخبر أو الناقل مجبولاً بطبعه على الكذب . يقول « ومن مخبر عنه طباعاً كأنه محمول عليه غير متمكن من غيره ، وذلك من دواعي الشرارة وخبث مخابىء الطبيعة » (٣١) .

هـ - الجهل بالأخبار أو ما يسميه الخشاب : الدهول عن المقاصد (٣٢) . « ومن مخبر عنه جهلاً وهو المقلد للمخبرين وإن كثروا جملة أو تواتروا فرقة بعد فرقة ، فهو وهم وسائط فيما بين السامع وبين المتعمد الأول » (٣٣) . وقد ضرب البيروني أمثلة على نقل الأخبار غير الصحيحة بماورد في كتابات بعض العلماء الهنود عن ديانة الهند ومذاهب أهلها . يقول « أن أكثرها منحول وبعضها عن بعض منقول وملقوط ، مخلوط غير مهذب على رأيهم ولا مشذب » (٣٤) . ومع ذلك فإن البيروني يرى أن الخبر قد يكون في بعض الأحيان الوسيلة الوحيدة لجمع معلومات عن الظاهرة الاجتماعية .

وفي هذه الحالة ينبغي مقارنة هذه الأخبار ومقابلتها ببعضها البعض والاخذ بما هو صحيح منها . يقول البيروني : « وإنما فعلت ما هو واجب على كل إنسان أن يعمل في صناعته من تقبل اجتهاد من تقدمه بالمئة وتصحيح خلل أن عثر عليه بلا حشمة » (٣٥) . ويقول في كتاب آخر : « وأبتدىء فأقول أن أقرب الأسباب المؤدية إلى ما سئلت عنه هو معرفة أخبار الأمم السالفة وأنباء القرون الماضية لأن أكثرها أحوال عنهم ، ورسوم

باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل الى التوصل الى ذلك من جهة الاستدلال بالمعقولات والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل ، وأصحاب الآراء والنحل ، المستعملين لذلك وتصيير ما هم فيه أسأً يبنى عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم في اثبات ذلك بعضها ببعض « (٢٦) . الى أن يقول في مكان آخر من الكتاب نفسه : « فان الذي ذكرته أولى سبيل يسلك بأن يؤدي الى حاقّ المقصود ، وأقوى معين على ازالة ما يشوبه من شوائب الشبه والشكوك ، وبغير ذلك لا يتأتى لنا نيل المطلوب ولو بعد العناء الشديد والجهد الجهد ، على أن الاصل الذي أصّلته ، والطريق الذي مهدته ، ليس بقريب المأخذ ، بل كأنه من بُعدته وصعوبته يشبه أن يكون غير موصول اليه لكثرة الاباطيل التي تدخل في جُمْل الاخبار والاحاديث ، وليست كلها داخلة في حد الامتناع فتميّز وتهدّب ، لكن ما كان منها في حد الامكان جرى مجرى الخبر الحق اذا لم يشهد ببطلانه شواهد أخر « (٢٧) .

ثالثاً : المام الباحث الانثروبولوجي بلغة المجتمع المدروس وبلهجاته :

لقد تنبه البيروني منذ تسعة قرون تقريباً الى ضرورة أن يكون الباحث الانثروبولوجي ملماً بلغة المجتمع الذي سيدرسه وامتقناً للهجاته ، ذلك لان معرفة اللغة - من وجهة نظر البيروني - هي أداة اتصال فكري وتفاعل وجداني بين الباحث وبين أفراد المجتمع الذي يدرسه ، وبدون معرفة قواعد اللغة وكشف مضامينها الفكرية ، فانه يتعذر على الباحث تفهم المجتمع ودراسته حيث يحصل بينه وبين أفراد المجتمع نوع من القطيعة وعدم التفاهم والتواصل مما يعجزه عن كشف المعاني والقيم الاجتماعية السائدة فيه، نظراً لما يقوم بين اللغة وبين بناء المجتمع ونسقه الثقافي العام من علاقات وترابطات تكاملية . يقول البيروني في هذا الصدد : « يجب أن نتصور أمام مقصودنا الاحوال التي لها يتعذر استشفاف أمور الهند ، فاما أن يسهل بمعرفتها الامر واما أن يتمهد له العذر ، وهو أن القطيعة تخفي ما تبديه الوصلة ، ولها فيما بيننا أسباب : منها أن القوم (يقصد الهنود) يباينوننا بجميع ما يشترك فيه الامم وأولها اللغة وأن تباينت الامم بمثلها ومتى رامها أحد لازالة المباينة لم يسهل ذلك « (٢٨) .

ويؤكد علماء الانثروبولوجيا المعاصرون أن اللغة ليست أداة للتفاهم ونقل الافكار وايصالها فحسب ، بل هي أداة لفهم المضمون الحضاري للمجتمع بكل ما تشتمل عليه الحضارة من قيم ومعانٍ وعادات وتقاليد ومعتقدات اجتماعية وشعائر طقوسية وغيرها من حقائق الحياة الاجتماعية ، على أساس أن هنالك علاقة بين المضمون الحضاري للمجتمع وبين لغة أفراداه (٢٩) . ويقول ايفانز برتشارد في هذا الصدد : « فلكي يفهم الباحث الانثروبولوجي فكر المجتمع الذي يدرسه يجب أن يعرف كيف يفكر بنفس الطريقة التي يفكرون بها ، كما أنه حين يتعلم لغة ذلك المجتمع فانه يتعلم كذلك ثقافتهم

ونسقهم الاجتماعي نظرا لانه يعبر عنهما بمصطلحات تلك اللغة والفاظها ، فكل علاقة اجتماعية وكل معتقد وكل تقنية بل وكل شيء في الحياة الاجتماعية يعبر عنه الافراد في الفاظهم وفي أفعالهم ، وحين يصل الباحث الى فهم معاني كل كلمات تلك اللغة وطريقة استعمالها في المواقف والمناسبات المختلفة يكون قد أنهى دراسة المجتمع «(٤٠)» .

فاللغة على هذا الاساس ليست مجرد وسيلة للتفاهم أو لتوصيل الافكار بل تتحدد وظيفتها كما يقول الخشاب في الاطار الوظيفي العام باعتبارها احدى حلقات السلوك الجماعي والنشاط الانساني المنتظم «(٤١)» . ويذهب مالىنوفسكي الى القول : « بأن اللغة هي الاداة الاساسية والوسيلة الضرورية لوصول الروابط البنائية التي يستحيل بدونها تحقق أو قيام العمل الجماعي المشترك » «(٤٢)» .

ولا شك أن التأكيدات على أهمية دراسة لغة المجتمع المدروس التي يلح عليها علماء الانثروبولوجيا المعاصرون وتأكيداتهم على عدم اعتماد الباحث على المترجمين الا في الظروف والحالات الاستثنائية ، يشير الى مبلغ ما وصل اليه البيروني من مكانة علمية رفيعة في هذا المجال حيث سبق الانثروبولوجيين المعاصرين بالمناداة بضرورة تعلم لغة الاهالي في المجتمع المدروس بقرون عديدة . وغني عن البيان أن نذكر أن البيروني لم يتعلم اللغة الهندية فحسب ، بل تعلم اللغة السنسكريتية التي تولدت عنها الهندية وأجادها وسيطر عليها سيطرة تامة ، بدليل انه ترجم كثيرا من كتبهم الى اللغة العربية حيث كان يرى أن اللغة العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته من الفارسية «(٤٣)» .

رابعا : الموضوعية : كان البيروني يلتزم جانب الحياد في كل ما يلاحظه فلا يعترض ولا ينتقد مطلقا حينما يشرح العقائد الدينية وغيرها من المتواضعات والانشطة الاجتماعية المختلفة . فهو يقول « وأنا في أكثر ما سأورده من جهتهم حالك غير منتقد الا عن ضرورة ظاهرة » «(٤٤)»

خامسا : تكوين فكرة مسبقة عن المجتمع موضوع الدراسة : وينعد هذا المبدأ من أهم مميزات الدراسة العقلية في الانثروبولوجيا المعاصرة . وتعني الفكرة المسبقة أن الباحث الانثروبولوجي يجب أن يكون لديه اطلاع ومعرفة بالمجتمع الذي ينوي دراسته دراسة ميدانية قبل أن يصل اليه : اما عن طريق الاخبار أو عن طريق قراءة كتب معينة عن هذا المجتمع . ولا تعني الفكرة المسبقة أن الباحث الانثروبولوجي سوف يظل أسير هذه الفكرة بعد انخراطه في المجتمع ، بل ينبغي أن يغيرها ويبدلها اذا وجد أن الحقائق الاجتماعية القائمة تعارض فكرته المسبقة عن المجتمع أو لا تتفق معها .

والمرجح أن البيروني قد استخدم هذا المبدأ وطبقه . فالعصر الذي عاش فيه البيروني (القرن الرابع للهجرة ، العاشر للميلاد) قد شهد حركة علمية وثقافية واسعة . فقد كان بلاط الخلفاء العباسيين في بغداد يزخر بعدد كبير من العلماء الهندوس والعرب وبخاصة بعد أن تم فتح أجزاء كبيرة في شمال الهند (٤٥) في عهد الخليفة العباسي المنصور . وقد قويت حركة الاتصالات العلمية والثقافية بين العلماء العرب والهنود بعد أن تأسست مدينة المنصورة في الهند في عام ٧٦٢م حيث أصبحت هذه المدينة مركزا مهما على الأرض السندية للتواصل العلمي والبحثي فيما بين العلماء العرب والهنود (٤٦) . وكان البيروني من بين هؤلاء العلماء ، ولذلك فلا بد أن يكون قد اطلع على ما كتب عن أحوال الهند أو وصلته أخبار عنها من خلال العلماء الهنود قبل أن يدخلها ، خاصة وأن صديقه الخميم القائد محمود الغزنوي هو الذي شجعه على دراسة جغرافية الهند ودراسة الحياة الاجتماعية فيها (٤٧) . وقد أشار البيروني نفسه الى هذا التكليف ورحّب به واعتبره شرفا عظيما (٤٨) . وهذا التكليف وتلك الرغبة من قبل البيروني تجعلنا نميل الى القول بأن البيروني قد درس أحوال الهند وكون فكرة عنها قبل دخولها .

سادسا : مبدأ المقارنة :

يولي علماء الاجتماع والانثروبولوجيا المعاصرون هذا المبدأ أهمية كبيرة في البحث الانثروبولوجي ذلك لانه باستخدام هذا المبدأ يمكن التعرف على مدى شيوع النظم الاجتماعية وعموميتها وإبراز أوجه التشابه فيما بينها في مختلف العصور تمهيدا لاقامة قواعد عامة تحكم أوجه النشاط الاجتماعي والسلوك البشري . وقد استخدم البيروني هذا المبدأ أحسن استخدام وطبقه أروع تطبيق . فقد قارن بين الديانة الاسلامية وديانة الهنود وبيّن ما بين الديانتين من تباين وتباعد . يقول « ومنها أنهم يباينوننا بالديانة مبانة كلية ، لا يقع من شيء من الاقرار بما عندهم ولا منهم بشيء مما عندنا » (٤٩) . وقارن بين عادات المسلمين وعادات الهنود وبيّن ما بينها من اختلافات كبيرة . يقول « ومنها أنهم يباينوننا في الرسوم والعادات » (٥٠) وقارن كذلك بين ديانة الهنود وديانة اليونان قبل ظهور الديانة المسيحية وبيّن ما بين الديانتين من أوجه التشابه والاتفاق ، يقول « ان اليونانيين أيام الجاهلية قبل ظهور النصرانية كانوا على مثل ما عليه الهند من العقيدة ، خاصتهم في النظر قريب من خاصهم ، وعامتهم في عبادة الاصنام كعامهم ، ولهذا أستشهد من كلام بعضهم على بعض بسبب الاتفاق وتقارب الامرين » (٥١) . وقارن الطبقات التي كانت موجودة في بلاد الفرس قبل الاسلام بالطبقات التي كانت قائمة في الهند ، وبيّن أوجه التماثل والتشابه بين هذين النظامين من الطبقات (٥٢) . كما قارن بين عادة الاستبضاع التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل

الاسلام بما كان موجودا عند الهنود وقت الجاهلية من انواع النكاح الذي يحرمه الاسلام (٥٢) ، وقارن ديانة الرومان واليونان بديانة الهند (٥٤) .

وقد توصل البيروني بناء على هذه المقارنات الى تعميمات عامة بشأن بعض الظواهر والنظم الاجتماعية بعد أن وجدها شائعة في بلدان كثيرة وفي شعوب مختلفة ، وفي مقدمة ذلك ، التعميم الذي يذهب الى أن عامة الناس ينزعون الى عبادة المحسوسات بينما يتجه المتعلمون العارفون الى عبادة الله المنزه عن الصفات البشرية . يقول البيروني : « معلوم أن الطباع العامي نازع الى المحسوس ، نافر من المعقول الذي لا يعقله الا العالمون الموصوفون في كل زمان ومكان بالقلّة » (٥٥) وقد توصل البيروني الى هذا التعميم بعد أن وجد أن عامة الناس في مختلف المجتمعات تتجه الى عبادة الاصنام بينما يتجه المتعلمون المثقفون الى عبادة الله .

وهكذا يتضح مما عرضنا له بصدد المنهج عند البيروني انه استخدم كثيرا من المراكز والاسس التي يقوم عليها المنهج الانثروبولوجي المعاصر ، ولا سيما ما يتعلق منه بالتركيز على الدراسة العقلية الميدانية ، وما ينبغي على الباحث الانثروبولوجي أن يلتزم به من اقامة في مجتمع الدراسة ، وملاحظة الظواهر الاجتماعية بنفسه ، وتدوين كل ما تقع عليه عينه في مكان حدوث الظاهرة ، ووقت حصولها ، وعدم الاعتماد على الاخباريين الا في حالة الضرورة ، وتعلم لغة المجتمع المدروس ، والاطلاع على أحواله وعاداته ونظمه الاجتماعية المختلفة قبل النزول الى الميدان الاجتماعي ، ومقارنة ما شاهده من عادات وأنشطة اجتماعية مختلفة بعادات شعوب ومجتمعات أخرى . وبهذا المبدأ الاخير يجمع الباحث الانثروبولوجي بين شتات النظم الاجتماعية ويستخلص القوانين أو القواعد العامة التي تعتبر الهدف الاساسي للبحث العلمي المنظم .

الطبقات الاجتماعية في الهند كما وصفها البيروني

ليس هنالك مجتمع من المجتمعات لعبت الطبقات الاجتماعية فيه دورا مهما في الحياة الاجتماعية مثل المجتمع الهندي . فقد أرست الطبقة التي تستند قواعدها وحدودها الى الديانة البرهمية القواعد والسنن التي تحدد السلوك الاجتماعي وتشرف على الأنشطة الاجتماعية في مجالات الحياة المختلفة . وقد حددت كذلك الجزاءات الاجتماعية والقوى الضبطية التي تضمن الطبقة وبموجبها سيادة قوانينها وقواعدها واطاعة الافراد لها وعدم خروجهم عنها . ومن هنا فقد اعتبرت الطبقة على أنها وحدة الهندوس الاجتماعية وانها حجر الزاوية لجميع نظم الهند الاجتماعية منذ آلاف السنين (٥٦) .

وقد أدرك البيروني أهمية النظام الطبقي في الهند ومدى تدخله وتغلغله في معظم شؤون الحياة الاجتماعية . ولذلك فقد حاول أن يبين أصل هذا النظام وأهدافه وغاياته ووظائفه ، وأن يبين عدد الطبقات وخصائصها ، ومميزات كل طبقة ومرتبته الاجتماعية وأن يربط ذلك كله بالبناء الاجتماعي القائم الذي تعتبر الطبقة وحدته الأساسية . فعن عدد الطبقات فقد ذكر البيروني أن عددها أربع وهي :

أ - طبقة البراهمة .

ب - طبقة كشر .

ج - طبقة البيشة .

د - طبقة الشودرا .

يقول البيروني وهم يسمون طبقاتهم : « برن » ، أي الألوان ، ويسمونهم من جهة النسب « جاتك » أي المواليد ، وهذه الطبقات في أول الأمر أربع ، عليها « البراهمة » فقد ذكر في كتبهم أن خلقهم من رأس « براهم » وأن هذا الاسم كناية عن القوة المسماة « طبيعة » والرأس علاوة الحيوان ، فالبراهمة نقاوة الجنس ، ولذلك صاروا عندهم خيرة الأنس ، والطبقة التي تتلوهم « كشر » خلقوا بزعمهم من مناكب براهم ويديه ، ورببتهم عن رتبة البراهمة غير متباعدة جداً ودونهم « بيش » خلقوا من رجلي براهم ، وهاتان المرتبتان الأخيرتان متقاربتان ، وعلى تمايزهم تجمع المدن والقرى أربعتهم مختلطي المساكن والدور ، ثم أصحاب المهن دون هؤلاء غير معدودين في طبقة غير الصناعة ويسمون « انتز » وهم ثمانية أصناف بالحرف ويتمازجون بما يشابهها من الحرف الآخر سوى القصار والأسكاف واللعب ونساج الزنابيل والاترسة والسفان وصيادو السمك وقناص الوحوش والطيور والحائك فلا يساكنهم الطبقات الأربع في بلدة ، وإنما يأوون إلى مساكن تقربها وتكون خارجها ، وأما « هادي » و « دوم » و « جندال » و « بدهتو » فليسوا معدودين في شيء ، وإنما يشتغلون برذالات الأعمال من تنظيف القرى وخدمتها ، وكلهم جنس واحد يميزون بالعمل كولد الزناء فقد ذكر أنهم يرجعون إلى أب « شودر » وأم « برهمن » خرجوا منهما بالسفاح فهم « منفيون منحطون » (٥٧) .

ونستطيع أن نستشف من هذا الوصف بعض الحقائق الاجتماعية المهمة وأولها : أن طبقة البراهمة هي أرقى الطبقات وأنقاها وأعلاها منزلة ، ثم تأتي طبقة « كشر » في المرتبة الثانية وتليها « بيش » ، أما « شودر » فهي أحط الطبقات وأدناها منزلة اجتماعية . وثاني هذه الحقائق اقرار الحواجز الفيزيائية أو ما يسمى بالعزل الفيزيقي بين الطبقات

ويترب على هذا العزل الفيزيقي بطبيعة الحال عزل اجتماعي وثقافي بين الطبقات، وهذا من شأنه أن يسلم الى حقيقة ثالثة وهي التمييز العنصري . فقد أظهر الوصف انه على الرغم مما يقوم بين الطبقات الثلاث الاولى من تمايز وتفاضل في الدرجات والمراتب الاجتماعية فانها جميعها تسكن الى جانب بعضها بعضا ولا تختلط بالطبقة الرابعة « شودرا » وهذا يدل على أن الطبقات الثلاث تنحدر من سلالة واحدة نقية تختلف عن السلالة المنحطة التي انحدرت منها طبقة الشودرا .

وفيما يتصل بالاصل التاريخي لنشأة نظام الطبقات في الهند ، يرى البيروني أن هذا النظام هو من ابتداع ملوك الهند القدامى . وهؤلاء كما يقول لوبون هم أحفاد الآريين البيض الذين فتحوا الهند قبل ألفي سنة تقريبا (٥٨). ويتبين من الوصف التاريخي لنشأة النظام الطبقي الذي قدمه البيروني أن الهدف من التصنيف الطبقي هو منع التمازج والاختلاط بين السلالات النقية التي ينتمي اليها الطبقات الثلاث وبين السلالة المنحطة التي ينتمي اليها الشودرا ، ويبدو أن الملوك من سلالة الآريين قد أدركوا بفعل التجربة ما يترتب على امتزاج سلالة نقية بسلالة منحطة من فساد وتدهور السلالة الراقية وانحطاطها أو تلاشيها على مرور الزمن ، ولذلك فقد عمدوا الى سن تشريعات تقضي بعدم الاختلاط والامتزاج بين فئات الشعوب الهندية ونسبوا هذه التشريعات الى الاله براهما الذي يعاقب على مخالفتها بعقوبات شديدة . يقول البيروني في هذا الصدد « وقد كان الملوك القدماء المعنيون بصناعتهم يصرفون معظم اهتمامهم الى تصنيف الناس طبقات ومراتب يحفظونها عن التمازج والتهاجر ويحظرون الاختلاط عليهم بسببها ، ويلزمون كل طبقة ما اليها من عمل أو صناعة وحرفة ولا يرخصون لأحد في تجاوز رتبته ويعاقبون من لم يكتف بطبقته » (٥٩) . ويذكر في مكان آخر « فقد ذكروا أن أمور الايالة والحروب كانت فيما مضى الى البراهمة ، وفي ذلك كان فساد العالم من جهة انهم أجروا السياسة على مقتضى كتب المللة من السيرة العقلية ولم يطحها ذلك لهم من ذوي العيث والزعارة ، وكاد الامر يعجزهم بما اليهم من أمر الديانة فتضرعوا الى ربهم فيه حتى أفردهم براهم لما اليهم ، وجعل السياسة والقتال الى كشتي ، ولذلك صار معاش البراهمة من السؤال والكدية ، وحصلت العقوبات في الناس بالذنوب من جهة الملوك لا العلماء » (٦٠) .

وقد ذكر لوبون بعضا من تعاليمهم الدينية التي وردت في قوانين « مانو » مشرع الهند العظيم ، ما يشير الى مبلغ اهتمامهم بايجاد فواصل جديدة بين الطبقات والاسس التي يقوم عليها هذا الاهتمام ، وأهمها المحافظة على نقاء العرق الآري وصفائه ، والحيولة دون فئائه بالامتزاج والاختلاط بالسكان الاصليين الكثيري العدد وهم الشودرا . فقد جاء في قوانين مانو « لا تلبث كل بقعة ينشأ فيها أناس من عروق متوالدة أن يعمرها الخراب وأن يضمحل سكانها » (٦١) .

وهكذا نجد أن نظام الطبقات في الهند قد وضع البذور الاولى لنظرية التمييز العنصري التي تقول بتفوق بعض العناصر البشرية وتخلف البعض الآخر ، بمعنى أن بعض العناصر تملك كفاءة وقابلية ومقدرة طبيعية للتفوق الحضاري أكثر من باقي العناصر البشرية الاخرى ، وأن هذا التفوق الحضاري موروث ويرتبط بخصائص جسمانية معينة . ولسنا بصدد مناقشة بطلان هذه النظرية وتهافتها ، ولكن ما نود أن نقوله ان افكارا معينة مثل التمرکز السلالي والتعصب العرقي كانت موجودة في المجتمع الهندي القديم وبخاصة لدى الطبقات الثلاث (« البراهمة » ، « كشتري » ، « بيش ») حيث كانت هذه الطبقات الثلاث ترى أنها انقى الشعوب الهندية وأفضلها ، أما ما عداهم فانهم امليج اي منحطون وأنجاس . وقد وصف البيروني هذه النظرية الاستعلائية التفوقية في أثناء مقارنته بين عادات المسلمين وعادات الهنود غير المسلمين : « وذلك أنهم يعتقدون في الارض أنها أرضهم ، وفي الناس أنهم جنسهم ، وفي الملوك أنهم رؤسائهم ، وفي الدين أنه نحلتهم ، وفي العلم أنه ما معهم ، فيترفعون ويتبظرون ويعجبون بأنفسهم فيجهلون ، وفي طباعهم الضنّ بما يعرفونه ، والافراط في الصيانة له عن غير أهله منهم ، فكيف عن غيرهم ، على أنهم لا يظنون أن في الارض غير بلدانهم وفي الناس غير سكانها » (١٢) . ويقول في موضع آخر من الكتاب « فليس بمطلق لهم قبول من ليس منهم اذا رغب فيهم أو صبا الى دينهم ، وهذا مما يفسخ كل وصلة ويوجب أشد قطيعة » (١٣) .

ويذكر البيروني أن التمايز والتفاضل موجود في داخل كل طبقة بحيث أدى هذا الوضع الى نشوء مجموعة من الفئات والشرائح الاجتماعية داخل الطبقة الواحدة . ويقوم هذا التمايز على أساس نوع الخدمة التي تقدم للنار ، وعلى أساس التصرفات والافعال المتوقعة من أفراد كل طبقة . يقول البيروني « يلحق كل واحد من أهل الطبقات سمات وألقاب بحسب فعله وطريقته ، كالبرهمن مثلاً فان هذه سمة مطلقة اذا لزم بيته في عمله فاذا لزم خدمة نار واحدة لقبه « آيشتهي » واذا خدم ثلاثاً من النيران فهو « آكن هوتري » ، واذا قرب للنار مع ذلك فهو ديكشت . فكذلك هؤلاء الا أن «هادي» أحدهم ، لانه يترفع عن القاذورات ويتلوه « دوم » لانه يجنكي ويطرب ومن بعدهما يترشح للقتل والعقوبات صناعة ويتولاها ، وشرهم «يدهتو» فانه لا يقتصر بأكل الميتة المعهودة ولكنه يتجاوزها الى الكلاب وامثال ذلك » (١٤) . وقد أشار البيروني ضمناً في وصفه للوظائف الاجتماعية للطبقات الى مفهوم اجتماعي مهم وهو مفهوم التكامل الاجتماعي . ويتجلى هذا المفهوم في التزام كل طبقة بالعمل الذي تجيده والذي خلقت لاجله بحيث تكمل أعمال كل طبقة أعمال الطبقة الاخرى ، فيشبع المجتمع احتياجاته المختلفة ويحافظ على استقراره وتوازنه . فطبقة البراهمة تشرف على الامور الدينية وتقوم بأعمال الكهانة ، وفضيلتها الحكمة والتعقل والنظافة وضبط

الحواس ، وتقوم طبقة كشتربأعمال الحروب والسياسة وفضيلتها الشجاعة والاقدام والكرم والصبر على الشدائد وتقوم طبقة ببش بأعمال الفلاحة والزراعة والتجارة ، وتختص طبقة الشودرا بخدمة كل الطبقات والتقرب اليها . يقول البيروني « يجب أن يكون البرهمن وافر العقل ، ساكن القلب ، صادق اللهجة ، ظاهر الاحتمال ، ضابطا للحواس ، مؤثرا للعدل ، بادي النظافة ، مقبلا على العبادة ، مصروف الهمة الى الديانة ، وأن يكون كشتربمهيبا في القلوب ، شجاعا ، متعظما ، زلق اللسان ، سمح اليد ، غير مبال بالشدائد ، حريصا على تيسير الخطوب ، وأن يكون ببش مشغولا بالفلاحة واقتناء السوائم والتجارة ، وشودر مجتهدا في الخدمة والتملق ، متحبيا الى كل أحد بها » (٦٥) .

وبذكر البيروني انه لا يجوز لافراد طبقة ما أن يقوموا بأعمال الطبقة الاخرى ، نظرا لما ينجم عن ذلك من خلل قد يصيب البناء الطبقي بأكمله فيعطله عن القيام بوظائفه ، وتحقيق أهدافه وغاياته ، فمثلا لا يجوز لكشتربأن يقوم بالوظائف الدينية التي تقوم بها طبقة البراهمة ، ولا يجوز لببشأن يقوم بالوظائف التي تقوم بها طبقة كشترب. وكل من يخالف هذه التعاليم يرتكب اثما كبيرا . فقد جاء في كتاب البيروني « وكل من هؤلاء (يقصد الطبقات) اذا ثبت على رسمه وعادته نال الخير في ارادته اذا كان غير مقصر في عبادة الله ، غير ناس ذكره في جلّ أعماله ، واذا انتقل عما اليه الى ما الى طبقة اخرى وان شرفت عليه كان اثما بالتعدي في الامر » (٦٦) . ويقول في موضع آخر من الكتاب « وكل عمل يخص البرهمن من التسابيح وقراءة بيد وقرابين النار فهو محظور عليه ، حتى انه وببش (أي شودر وببش) ان صح عليهما انهما قرآ بيد رفعتهما البراهمة الى الوالي فقطع لسانهما ، وأما ذكر الله وعمل البر والصدقة فهو غير ممنوع عنه . وكل من تعاطى ما ليس لطبقته ان يتعاطاه كالبرهمن التجارة وشودر الفلاحة ، فهو آثم وان قصر مقدار اثمه عن السرقة » (٦٧) .

ولان طبقة البراهمة منصرفة كلية الى خدمة النار والقيام بالواجبات الدينية (٦٨) ، فانها تعتمد في معيشتها على ما يقدم لها من الصدقات والهبات من الطبقات الاخرى . وقد جعلت الديانة البرهمية الصدقة على فقراء البرهمة افضل عمل يقوم به هندوسي ، ولذلك فرضت التعاليم الدينية على اهل الميت أن يتصدقوا على البراهمة لمدة عام كامل ، كما فرضت على الطبقات الاخرى أن يقدموا لهم صنوفا من الاطعمة في مناسبات الاعياد والضيافة وفي أيام الصوم ، ونستشهد على ذلك ببعض ما جاء في كتاب البيروني ، عندما يموت الميت « وبعد اليوم الحادي عشر يوجّه كل يوم من الطعام ما يكفي نفسا واحدة ودرهم معه الى بيت برهمن ويداوم ذلك طول أيام السنة ولا يقطع الى آخرها » (٦٩) . كذلك فقد أعفت الديانة البرهمية طبقة البراهمة من الضرائب المستحقة على هذه الصدقات ، ومن الضرائب المستحقة على ممارستهم للاموال التجارية اذا اقتضت الضرورة أن يمارسوها (٧٠) .

وهكذا نجد أن التكامل الاجتماعي ينبثق من اعتماد كل طبقة على الطبقة الأخرى، والتزام كل طبقة بالوظائف والأعمال التي حددت لها بموجب قوانين مانو . ويلاحظ أن هذا التكامل الاجتماعي مناظر للتكامل العضوي ومتولد عنه . فهناك نوع من التناظر بين الفضيلة التي تميز طبقة البراهمة والوظائف التي تقوم بها وبين العضو البيولوجي الذي تولدت عنه في جسم برهما وفضيلته والوظيفة التي يقوم بها . فضيلة الحكمة التي تميز طبقة البراهمة تنسجم مع العضو الذي تولدت منه والعمل الذي يقوم به وهو الرأس مركز العقل والتفكير ، وكما أن التفكير أهم شيء يميز الإنسان عن الحيوان فكذلك تميزت طبقة البراهمة عن باقي الطبقات الأخرى واحتلت منزلة أعلى منها جميعا . وكذلك الأمر بالنسبة لفضيلة الشجاعة التي تميز طبقة « كشتري » حيث تنسجم فضيلتهم مع فضيلة العضوين اللذين تولدت منهما ، وتنسجم الأعمال والوظائف التي يضطلعون بها مع الأعمال والوظائف التي يقوم بها هذان العضوان أي المنكبان واليدان وهما رمزا للقوة والبطش . وهكذا بالنسبة لباقي الطبقات الأخرى .

ومع أن فكرة التناظر بين التركيب العضوي والتركيب الاجتماعي التي أصبحت تدعى اليوم بالمماثلة العضوية قد شاعت منذ القديم حيث وردت في كتابات أرسطو وأفلاطون في العصور القديمة وفي كتابات ابن خلدون في العصور الوسطى وظهرت حديثا في كتابات سبنسر ودركهايم ومالينوفسكي، فإن البيروني قد اشتق هذه الفكرة من واقع اجتماعي قائم بالفعل ، إضافة إلى أن فكرته عن التكامل كانت أوسع وأكثر شمولاً ، بحيث تنظم العالم الطبيعي والعالم الاجتماعي إضافة إلى العالم العضوي . وبذلك يكون قد سبق سبنسر إلى اكتشاف هذه الفكرة والمناداة بها بقرون طويلة . ولكنه ردّ هذه الفكرة إلى حكمة الله ليكون بها معاش الناس واستمرار حياتهم « وكما أن تعاون المتمدنين لا يكون إلا مع التفاضل ليجتاح أحدهم إلى الآخر ، كذلك خلق الله العالم مختلف الطباع متفاوت البقاع واحدة صroda ، وأخرى جروما ، وواحدة طيبة التربة والماء والهواء ، وأخرى سبخية أو عفنة آسنة الماء وبيئة الهواء ، وكذلك سائر الاختلافات في كثرة النعم وقلتها وتواتر الآفات وعدمها مما يدعو المتمدنين إلى اختيار الامكنة لبناء المدن من أجلها » . (٧١) ويتضح من هذه العبارات التي أوردها البيروني أنه قد سبق دوركهايم في حصر التضامن العضوي بالمجتمع المتقدم في مقابل التضامن الآلي الذي يميز المجتمع البسيط أو المتخلف . وقد عبر البيروني عن فكرة التضامن الآلي ومدى انتشارها في الجماعات البسيطة والمتخلفة عندما أشار إلى نزعة هذه الجماعات إلى عبادة الأصنام والأوثان سواء في الهند أو في غيرها من الشعوب والمجتمعات الأخرى، حيث تمارس هذه الجماعات الشعائر والطقوس الدينية باتجاه الأصنام بصورة تلقائية وبدون تفكير أو تعقل (٧٢) .

علاقة البناء الطبقي بالسنن والمعايير الاجتماعية :

لقد أشار البيروني في مواضع متفرقة من كتابه الى كثير من العادات والسنن والانشطة الاجتماعية التي يمارسها الافراد في مواقف وأوضاع اجتماعية مختلفة ، وبين أن هذه السنن والعادات ترتبط ارتباطا وثيقا بالطبقة الاجتماعية التي ينتمي اليها الفرد او بالوضع الاجتماعي الذي يحتله في داخل طبقته .

وبما أن القواعد والقوانين التي تحكم تصرفات الفرد في كل طبقة اجتماعية قد أوحى بها الاله براهما عن طريق مانو فعندئذ تصبح تصرفات الفرد وأنشطته الاجتماعية المختلفة محددة من قبل الاله ولا ينبغي تجاوزها أو الخروج عليها . ومن هنا فإن أية محاولة لفهم الطبقة والحياة الاجتماعية في الهند لا تتم الا بفهم الديانة الهندية وتعاليمها . وسوف نستعرض ثلاثة نظم اجتماعية لها صلة وثيقة بنظام الطبقة الاجتماعية في الهند وبالتشريعات والتعاليم الدينية ، وهي نظام المؤاكلة ونظام الزواج والجزاءات الاجتماعية :

١ - نظام المؤاكلة :

يفرض نظام المؤاكلة على الفرد في المجتمع الهندي أن لا يشترك في تناول طعام مع شخص آخر ينتمي الى طبقة غير طبقته ، وأن لا يجالسه على المائدة . وقد أوحى طبقة البراهمة أن هذا النظام هو نظام الاهي وصادر عن حكمة ربانية ، ولذلك يجب التقيد بمضمونه وعدم مخالفته والخروج عنه . يقول البيروني « وكل طبقة من الطبقات الاربع فانها تصطف في المؤاكلة على حدة ولا يشتمل صف على نفرين مختلفي الطبقة . فان كان في صف البراهمة مثلا نفران منهم متنافران وتقارب مجلساهما فترق بين المجلسين بلوح يوضع فيما بينهما ، أو ثوب يمد أو شيء آخر بل أن خط بينهما تمايزا » (٧٣) .

أما الحكمة في ذلك فتتمثل في أن الشخص اذا اصطف مع آخرين على مائدة وشبع قبلهم فان ما تبقى من الطعام يعتبر فضلة والفضلة من الطعام محرمة ، ولذلك وجب أن يأكل الشخص منفردا . يقول البيروني « ولأن الفضلة من الطعام محرمة فانها توجب الانفراد بالماكل لانه اذا تناوله أحد المؤاكلين في قصعة واحدة صار ما بقي بتناول الآخر وانقطاع أكل الاول فضلة محرمة » (٧٤) .

وقد أشار لوبون الى أن هذا النظام كان مطبقا الى الوقت الذي زار فيه الهند في مطلع القرن العشرين . يقول « وقد تجدون مئات من براهمة الهند الموظفين في دوائر البريد وفي ادارة الخطوط الحديدية لا يزيد راتب الواحد منهم على خمسة وعشرين فرنكا كل شهر وقد تجدون بين البراهمة من هم من السائلين بيد أن ذلك الموظف أو السائل يفضل الموت على الجلوس حول مائدة نائب الملك » (٧٥) .

ب - نظام الزواج :

ان نظام الهنود في الزواج أن يتزوج الشخص من طبقته أو من طبقة ادنى منها ما عدا أن يتزوج من السودرا ، فلا يتزوج من السودرا الا شودرا ، ولا يجوز للشخص أن يتزوج من طبقة اعلى من طبقته . يقول البيروني « وعلى الرجل أن يتزوج بامرأة من طائفته أو من طائفة ادنى منها ، ولكن الرجل الذي يتزوج واحدة من السودرا يصبح مفضوحا ، مهتوك الستر ويطرد من طائفته ، ويصيبه خزي في الدنيا والآخرة ، فلا يتزوج نساء السودرا الا رجال من السودرا ، ويجوز لكل واحد من أهل الطبقات أن يتزوج من طبقته وفيما دونها ولا يحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته » (٧٦) .

ويطلعنا البيروني على أن نظام الانتساب الى الام كان هو نظام النسب الشائع في الهند ، حيث ينتسب الولد هناك الى امه دون ابيه . ويعلل البيروني ذلك بالمحافظة على نقاء طبقة البراهمة وصفاء عرقها والرغبة في عدم امتزاجها بالسلالات الاخرى لئلا تنحط وتتلأشى . يقول البيروني « يكون الولد منسوباً الى طبقة الام دون الاب ، فان كانت امرأة البرهمن مثلاً برهمن ، كان الولد كذلك وان كانت شودرا ، كان شودرا ، ولكن البراهمة في زماننا وان حل لهم ذلك لا يفعلونه ولا يتجاوزون في التزويج غير طبقتهم » (٧٧) .

وقد أكد لوبيون أن هذا النظام يهدف الى نقاء العرق وصفاء السلالة . فلربما كان في رأي البراهمة أن تزواج رجل وامرأة من عرقين متفاوتين يؤدي في الغالب الى اولاد متوسطين خلقاً منحطين خلقاً . وقد نصت شريعة مانو بالفعل ما يفيد أن اختلاط السلالات بالتزاوج يؤدي الى فساد العرق النقي وتدهوره . فقد جاء في شريعة مانو « لم يلبث كل بلد يولد فيه اولاد من عرق متوالد مفسد لصفاء الطبقات أن تقوض دعائمه وينحط سكانه » (٧٨) . وجاء كذلك « وأسرّة الرجل مهما تكن شريفة ممتازة لا بد لهذا الرجل اذا كان وليد طبقات مختلطة من أن ينتقل اليه بالارث شيء من سجيّة أبويه وسوء خلقهما » (٧٩) . ونصت قوانين مانو أيضاً « وما في الرجل من فقدان المشاعر النبيلة وغلظة الكلام والجلف واهمال الواجبات فموروث عن أم جديرة بالاحتقار » (٨٠) .

وقد تكون هاتان السمتان أي نظام المؤاكلة أو المطاعمة ونظام الزواج أهم سمتين تتميز بهما كل واحدة من الطوائف ويختلف بهما أفراد كل طائفة عن أفراد الطوائف الاخرى . وقد أشار البيروني كذلك الى نظام تعدد الزوجات في المجتمع الهندي . وبموجب هذا النظام يجوز للرجل أن يتزوج بأربع ، ولا يجوز له أن يزيد على ذلك . يقول البيروني « وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة الى أربع ، وما فوق الاربع محرم عليه الا أن تموت احدى من تحت يده منهن فيتم العدد بغيرها ولا يتجاوزها » (٨١) . غير أن البيروني يستدرك فيشير الى أن بعض الهنود يرى ان عدد النساء يكون بحسب

الطبقات فيصبح الزواج في هذه الحالة مظهرا من مظاهر التمايز الطبقي . يقول «ومنهم من يرى عدة النساء بحسب الطبقات حتى يكون للبرهمن أربعا وكشتر ثلاثا ولبيش اثنتين ولشودر واحدة» (٨٢) .

ج - الجزاءات الاجتماعية :

يخضع نظام الجزاءات الاجتماعية للنظام الطبقي ويرتبط به ، بمعنى أن الجزاءات تتناسب مع المزايا الطبقية ومع مرتبة الطبقة ومنزلة الفرد فيها . ولذلك فقد جاء نظام الجزاءات مكرسا للنظام الطبقي وداعما له ومبثقا عليه . وقد اخترنا الجزاءات الاجتماعية الخاصة بالقتل لنبين مدى انسجام هذه الجزاءات وتساوقها مع مرتبة الطبقة ومنزلتها ارتفاعا أو هبوطا . فالشخص القاتل لا يتعرض لاية جزاءات سلبية أو عقوبات اذا كان برهمنًا وكان المقتول برهمنًا أيضا ، حيث يفوض أمر القاتل والمقتول في هذه الحالة الى الله . اما اذا كان القاتل برهمنًا وكان المقتول من سائر الطبقات فلا يلزم البرهمن الا كفارة ، وذلك لان الحكام لا يقتضون من برهمن أو كشتري . اما باقسي الطبقات فان قتل بعضهم بعضا يكفر بكفارة ، وفي نفس الوقت يعاقبون من قبل الحكام للاعتبار . يقول البيروني « فأما أمر القتل فان القاتل اذا كان برهمنًا والمقتول من سائر الطبقات لم يلزمه الا كفارة ، وهي تكون بالصوم والصلاة والصدقة ، وان كان المقتول برهمنًا أيضا كان أمره الى الآخرة ولم يجزه كفارة ، اذ الكفارة تمحو الذنوب ، وليس شيء يمحو من البرهمن كبائر الآثام ، وعظماها قتل البرهمن ويسمي وزره «برهم هت» ثم قتل البقر ثم شرب الخمر ثم الزنا وخاصة مع من هو لأبيه أو لأستاده . على أن الولاة لا يقتضون من برهمن أو كشتري ولكنهم يستصفون ماله وينفونه من ممالكهم ، وأما من دون البراهمة وكشتري فان قتل بعضهم بعضا يكفر بكفارة ، ولكن الولاة يقيمون فيهم القصاص للاعتبار » (٨٣) .

وفي الحقيقة فهناك موضوعات اجتماعية وأنثروبولوجية عديدة تطرق اليها البيروني على جانب كبير من الاهمية بالنسبة للأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع لكونها تصور مختلف جوانب الحياة الاجتماعية في المجتمع الهندي القديم ، مثل العادات الاجتماعية الخاصة بحرق جسد الميت وحرق الزوجة المتوفى زوجها والعادات الخاصة بالصوم والحج وعدم اكل لحم البقر وعبادة الاصنام والنكاح ونحوها . وانه لمن الصعب أن يتوفر باحث مفرد على دراسة هذه الانشطة الاجتماعية جميعها ، ونأمل أن يتوفر عليها نفر آخر من الباحثين الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع لكونها تشكل جهودا علمية متميزة لعالم من مشاهير علماء العرب والمسلمين في القرن الحادي عشر الميلادي وهو البيروني .

غير أن الباحثين سوف يجدون أن الموضوعات التي أشرنا إليها وغيرها من السنن والانشطة الاجتماعية الأخرى مرتبطة أشد الارتباط بالطبقة الاجتماعية ، فهي محور الحياة الاجتماعية وأساس كل نشاط اجتماعي . وقد أدى هذا الوضع إلى جمود الوضع الاجتماعي وإلى انفلاق كل طبقة على نفسها ، وقد مارس الانفلاق الطبقي تأثيرات سلبية في مجمل الحياة الاجتماعية ، فتعددت لغاتهم ودياناتهم وأمزجتهم وعاداتهم الاجتماعية . وهذا أدى بدوره إلى تبعثر جهودهم وتفرقها وعدم انصهارهم وتوحدتهم في كل موحد ضد الاخطار الخارجية مما جعلهم فريسة سهلة لكل طامع في أرضهم . وقد أدرك الانكليز بالفعل أهمية النظام الطبقي لاستمرار حكمهم وتمكين سيطرتهم على الهند ، فراحوا يغذون الفواصل بين الطبقات ويشجعونها لإدامة حكمهم أطول مدة ممكنة من الزمن (٨٤) . وقد تنبه « غاندي » قائد الهند الروحي إلى مثالب النظام الطبقي في الهند وما جرّه هذا النظام من كوارث وويلات على الشعوب الهندية فسن القوانين الدستورية والتشريعات التي تجرم كل شخص يفرق في المعاملة بين الناس بسبب الجنس أو الطبقة أو المهنة ، وألقى كذلك الفواصل بين المنبوذين وبقية الطبقات الأخرى (٨٥) . وبهذه الاجراءات الانسانية استطاع غاندي أن يجمع الهنود حوله على اختلاف طوائفهم وأديانهم وأن يحرر بلاده من السيطرة الأجنبية .

الخاتمة :

لقد كانت قضيتنا المحورية في هذه الدراسة هي إبراز اسهامات المفكرين العرب في مجال التمهيد للدراسات الانثروبولوجية الحديثة سواء في مجال المنهج أو في مجال الموضوع ، وذلك من خلال تحليل محتويات كتاب الفكر العربي « أبي الريحان محمد بن أحمد البيروني » (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) الذي ضم بين دفتيه معلومات اثنوغرافية غزيرة عن الحياة الاجتماعية في الهند ونظمها المختلفة في القرون الوسطى .

وقد اتضح أن البيروني قد استخدم في جمع مادته الاثنوغرافية كثيراً من المبادئ والاسس التي يقوم عليها المنهج الانثروبولوجي المعاصر، وفي مقدمتها الاعتماد على الدراسة العقلية الميدانية ، أي إقامة الباحث الانثروبولوجي في مجتمع الدراسة مدة من الوقت تكفي لجمع البيانات والمعلومات من الميدان الاجتماعي عن طريق الملاحظة والمشاركة الحسية . وقد لاحظنا كيف أن البيروني لفت أنظار الدارسين والباحثين إلى كثير من القضايا المنهجية في الدراسات الانثروبولوجية ، مثل ضرورة تعلم لغة المجتمع المدروس وعدم الاعتماد على المترجمين ومشاهدة الظاهرة الاجتماعية في وقت وقوعها وزمان حدوثها وتسجيل كل الجزئيات المتعلقة بها وعدم الاعتماد على الاخباريين نظراً لما يسببه

الآخباريون من تشويه للحقائق الاجتماعية . وكان في كثير من الأحيان يستخدم التحليل والتفسير في دراسة الظواهر الاجتماعية ويقارنها بمثيلاتها في مجتمعات أخرى .

وفي مجال الموضوع ، فقد اشتمل كتاب البيروني الآنف الذكر على كثير من الموضوعات الاجتماعية التي ما زالت تشكل محور الدراسة الانثروبولوجية المعاصرة . وقد اخترنا منها موضوع الطبقة الاجتماعية وبعض السنن الاجتماعية المرتبطة بها . وقد اتضح لنا من خلال الوصف الذي قدمه البيروني عن خصائص الطبقة الاجتماعية ووظائفها وظروف نشأتها أنها محور الحياة الاجتماعية في المجتمع الهندي القديم وأنها المحدد الرئيسي لمعظم تصرفات الافراد وأنشطتهم الاجتماعية المختلفة . وقد أوضح البيروني ذلك بالإشارة الى أن نظم الزواج والمأكلة والجزاءات وغيرها من النظم الاجتماعية ترتبط ارتباطا وثيقا بالطبقة وبمرتبة الفرد فيها .

وقد أنهينا هذه الدراسة بالإشارة الى أن النظام الطبقي الذي عانى منه المجتمع الهندي كثيرا قد تغير الى درجة كبيرة بعد أن قام المصلح الاجتماعي والقائد الهندي الروحي غاندي بسن التشريعات والقوانين التي تحرم الفواصل بين الطبقات ، وتجرّم كل شخص يفرق في المعاملة بين الناس على أساس الجنس أو الطبقة أو المهنة . وبذلك بدأت الهند تأخذ دورها في الاسهام في الحضارة العالمية .

الحواشي

(١) Regena Darnell ; Readings in the History of Anthropology, Harper and Row Publishers, 1974 , p. 67 .

(٢) سامي الكيالي ، الفكر العربي بين ماضيه وحاضره ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٣ ، ص ١٣ .

(٣) اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، القسم الاول ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم ، جامعة الدول العربية ، الادارة الثقافية ، ١٩٦١ ، ص ٣١٩ .

(٤) انظر في هذا الصدد ، غوستاف لوبون ، حضارات الهند ، ترجمة عادل زعير ، دار احياء الكتب العربية ، ١٩٤٨ ، ص ٥٤٦ . وانظر كذلك محمد جمال الدين سرور ، تاريخ الحضارة الاسلامية في المشرق ، دار الفكر العربي ١٩٦٥ ، ص ١٤٨ .

(٥) Darnell, op. ci t. p. 261 .

(٦) الكيالي ، مرجع سابق ، ص ٢٧ .

(٧) نذكر من هؤلاء المرحوم د. أحمد الخشاب ، والدكتور عبد الكريم اليافي ، والاستاذ كارلتون كون والاستاذ الكيالي . انظر في هذا الصدد كتاب أحمد الخشاب التفكير الاجتماعي ، دار المعارف

بمصر ١٩٧٠ ، ص ٢١١ ، وما بعدها . وانظر عبد الكريم اليافي ، تمهيد في علم الاجتماع . ص ٥٤ وما بعدها . وانظر سامي الكيالي ، المرجع السابق ص ٣٧ وما بعدها . ولقد وردت دعوى كون في كتاب الخشاب في نفس الصفحات المشار إليها .

- (٨) الكيالي . المرجع السابق ص ٤٠ .
(٩) الجامعة الأردنية ، عمادة البحث العلمي ، مجلة دراسات ، المجلد ١٠ ، العدد ١ ، حزيران ، ١٩٨٣ - صص ٢٧ - ٥٣ .

- (١٠) غوستاف لوبون ، مرجع سابق ، ص ٩ .
(١١) أحمد حسين ، أمة تبعث ، شركة التوزيع المصرية ، بدون تاريخ ، ص ١٩ .
(١٢) كراتشكوفسكي ، مرجع سابق ، ص ٢٤٥ .
(١٣) بجيانند ، غرة الزيجات ، اوزيج كرت ، ترجمة البيروني ، المجمع العلمي السندي ، جامعة السند ، حيدر آباد ، السند ، باكستان ، ١٩٧٣ ، ص (ح) .

- (١٤) Bijyanand of Benares . Ghurrat Al - Zijat, or Karana , prepared for publication by , N. A. Baloch, Institute of Sindhology. University of Sind, Pakistan, 1973, p. 47 .

- Ghurrat Al-zijat., p. 68. (١٥)

- Ibid. p. 14. (١٦)

- (١٧) كراتشكوفسكي : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .
(١٨) حول المنهج الانثروبولوجي كإطار تصوري عام انظر :

- A. Radcliffe - Brown, Adolf, **Andaman Islanders**, Glercoe, Illinois press, 1948, p. 110.
B. Bronislaw, Malinowski, **A scientific Theory of Culture and other Essaye**, Chapel Hill, The University of North Carolina, 1944, p. 160.

- (١٩) شاكراً مصطفى سليم ، المدخل الى الانثروبولوجيا ، بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٧٥ ، ص ١١١ .
(٢٠) Bronislaw, Malinowski, **Argonauts of the western pacific**, London, Thira impr 1950, pp. 6 - 8 .

وهناك قواعد فرعية لهذه الاسس الثلاث شرحها . شاكراً مصطفى سليم . انظر كتابه المشار اليه سابقاً . صص ١٢ - ١٢٠ .

- (٢١) البيروني ، تحقيق ، ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ، مرجع سابق ص ١ . وسوف نشير الى هذا المرجع فيما بعد بصورة مختصرة « تحقيق ما للهند » .

- Ghurrat Al - Zijat op. ci t. p. 64. (٢٢)

- (٢٣) شاكراً مصطفى سليم ، المرجع السابق ، ص ١١١ .

- (٢٤) البيروني ، تحقيق ما للهند . ص ١٥ .

- (٢٥) البيروني ، غرة الزيجات ، مرجع سابق ، ص ٥٣ .

- (٢٦) وقد نبه ابن خلدون أيضا الى ضرورة تمحيص الاخبار من الاباطيل والاكاذيب .
انظر مقدمة ابن خلدون ، المطبعة الشرقية ، ١٣٢٧ هـ ص ٢٢ وما بعدها .
- (٢٧) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١ .
- (٢٨) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٢ .
- (٢٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٢ .
- (٣٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٢ .
- (٣١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٢ .
- (٣٢) مصطفى الخشاب ، علم الاجتماع ومدارسه ، الكتاب الاول ، دار المعارف بمصر ، ١٩٥٨ ص ١٩٨٢ .
- (٣٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٢ .
- (٣٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ص ٤ .
- (٣٥) بحيانند البنارسي ، غرة الزيجات ، ترجمة البيروني ، مرجع سابق ، ص (ح) .
- (٣٦) البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٥ .
- (٣٧) الآثار الباقية ، المرجع السابق ، ص ٥ .
- (٣٨) البيروني : تحقيق ما للهند ، ص ١٣ .
- (٣٩) صفوح الاخرس . الانثروبولوجيا الاجتماعية ، دمشق ، جامعة دمشق ، مطبعة أبو بكر الرازي ، ١٩٨٤ ، ص ٣٦ .
- (٤٠) E. E. Evans - Pritchard, *Social Anthropology*, Cohen and West L TD. London, 1962, p. 79 .
- (٤١) أحمد الخشاب ، دراسات أنثروبولوجية ، دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، ص ١٠٩ .
- (٤٢) Malinowski, *Argonauts*, op, ci t, pp.6-9 Ali Issa, *Social Anthropology in theory and practiec*, Dar Al - Maarif, Cairo, 1946. p. 156 - 166.
- (٤٣) سرور ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .
- (٤٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٩ .
- (٤٥) Ghurrat Al - Zibat, op. ci t, p. 39.
- (٤٦) Ibid. p. 33.
- (٤٧) سرور ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .
- (٤٨) البيروني ، الآثار الباقية ، مرجع سابق ، ص ٥ . (كتاب لآثار الباقية قدمه البيروني الى ولي النعم شمس المعالي قابوس بن وشمكير (المجلة) .
- (٤٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٤ .
- (٥٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٥ .
- (٥١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٨ .
- (٥٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٦ .
- (٥٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٣ .
- (٥٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٠ .
- (٥٥) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٤ .
- (٥٦) لوبون : المرجع السابق ، ص ٦٥٧ .
- (٥٧) البيروني . تحقيق ما للهند . ص ٧٦ - ٧٧ .
- (٥٨) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥٠ .

- (٥٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٥ - ٧٦ .
- (٦٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٤ .
- (٦١) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥١ .
- (٦٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٧ .
- (٦٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ١٥ .
- (٦٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٧ - ٧٨ .
- (٦٥) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
- (٦٦) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
- (٦٧) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٥٧ - ٤٥٨ .
- (٦٨) ان القيام بالخدمات الدينية وبخاصة اطعام النار من (دهن وحبوب وحنطة ، وشعير ورز) وقراءة بيذ عند تقديم القرابين للنار هو من عمل طبقة البراهمة ، أما كشتري فيمكن أن يقرأ بيذ ويتعلمه ولا يعلمه ، ويمكن كذلك أن يقرب للنار وأن يسوس الناس ويقاقل عنهم فهو مخلوق لذلك . البيروني تحقيق ما للهند ، ص ٤٥٧ .
- (٦٩) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٧ .
- (٧٠) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٦٦ .
- (٧١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٦٤ .
- (٧٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٨٤ .
- (٧٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
- (٧٤) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٧٨ .
- (٧٥) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥٤ .
- (٧٦) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٠ .
- (٧٧) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٠ - ٤٧١ .
- (٧٨) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٤ .
- (٧٩) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .
- (٨٠) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٢٩٥ .
- (٨١) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .
- (٨٢) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٠ .
- (٨٣) البيروني ، تحقيق ما للهند ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .
- (٨٤) لوبون ، المرجع السابق ، ص ٦٥٧ . وانظر كذلك أحمد حسين ، أمة تبعث ، شركة التوزيع المصرية ، بدون تاريخ ، ص ٣٢ .
- (٨٥) أحمد حسين ، المرجع السابق ، ص ٣٦ - ٤٠ .